

المفهوم القرآني للعقيدة



«يوجِّه القرآن الكريم نظر الإنسان وفكره إلى كلِّ ما يحيط به وإلى ذاته ونفسه، حتى إذا ما كان النظر والفكر سليماً فإنَّه سوف يصل حتماً إلى العقيدة الصحيحة وهي التوحيد. وهذا التوجيه القرآني الكريم أبسط وأبلغ وأعمق وأنفذ من كلِّ دلائل الفلاسفة والمتكلمين. يقول تعالى:

(وَأَيُّ آيَةٍ لَهُمْ إِلَّا يَلْبِغُوا نَسْلًا مِّنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مِّمْلَأُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَا هُمْ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) (يس/ 37-39).

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) (النحل/ 3-5).

ويطرح القرآن الكريم مجموعة من التساؤلات أمام عقل الإنسان ليس لها سوى إجابة واحدة سليمة، ومثال هذا:

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) (الطور/ 35).

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْزَلْنَاهُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ رَحْمَتُنَا مِنَ الْغَايِبِ) (الواقعة/ 63-64).

(أَفَرَأَيْتُمْ الْبَارِئَ السَّيِّئِ تَوْرُونَ * أَأَنْزَلْنَاهُمْ أَمْ شَجَرَتَاهَا أَمْ رَحْمَتُنَا مِنَ الْغَايِبِ) (الواقعة/ 71-72).

هذه التساؤلات وغيرها ليس لها سوى إجابة واحدة وهي (لا)، ذلك أنها تثير قضية الخلق ولا خالق

إلا أنّ سبحانه. ومن الواضح أنّ سبحانه وهو يخاطب عقل الإنسان ينتقل به من المحسوس إلى الغيبيات، ومع أنّ الإيمان بالغيب شرط أوّل للإيمان، إلا أنّ القرآن مع هذا يقدم مختلف صور الإقناع والتدليل البليغ على وجود الله استناداً إلى طبيعة تفكير البشر. ويمكن إيجاز أهم أركان العقيدة الإسلامية في قوله تعالى:

(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفِرُ قُبَيْنٍ أَوْ حَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) (بقرة/ 285).

وإذا كانت العقيدة هي الجانب النظري الذي يطلب الإيمان به إيماناً يقينياً، فإنّ الشريعة هي النظم التي شرعها الله سبحانه أو شرع أصولها ليأخذ الإنسان بها نفسه من علاقته بربه، و(سبيلها أداء الواجبات الدينية كالصلاة والزكاة والصوم...)، وعلاقته بأخيه المسلم (سبيلها تبادل المحبة والتناصر والأحكام الخاصة بتكوين الأسرة والميراث...)، وعلاقته بأخيه الإنسان (وسبيلها التعاون من تقدم الحياة العامة والسلم العام)، وعلاقته بالكون (وسبيلها حرية البحث والنظر في الكائنات التي سخرها الله سبحانه للإنسان واستخدام آثارها في رقيه)، وعلاقته بالحياة (وسبيلها التمتع بلذات الحياة الحلال أي ما أحله الله دون إسراف أو تقشف شديد).

ويدرك الباحث في كتاب الله الكريم أنّ القرآن قد عبّر عن العقيدة "بالإيمان" وعن الشريعة "بالعمل الصالح"، ومثال هذا:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَدْخُلُونَ عَنْهَا جُولًا) (الكهف/ 107-108). (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْذَرٍ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنُدْخِلَنَّهُ جَنَّاتٍ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا * أَجْرَهُمْ بِمَا حَسَنُوا) (النحل/ 97). وقال تعالى: (وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) (سورة العصر). وقال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (الأحقاف/ 13).

ولهذا فإنّ الإسلام لا ينطوي على عقيدة فقط، تنظم علاقة الإنسان بربه فحسب، وإنما ينطوي كذلك على شريعة توجه الإنسان إلى نواحي الخير في الحياة، وتقيم مجتمعاً يحقق القوة والتعاون والتكامل والحد، يقول تعالى:

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ...) (الأنعام/ 162-164).

*عميد كلية الدراسات الإنسانية سابقاً وأستاذ الاجتماع بجامعة الأزهر

المصدر: كتاب البناء الاجتماعي للمجتمع الإسلامي